محاضرات مادة

تاريخ الأدب الجزائري المعاصر

المستوى: ماستر 2

التخصص: أدب عربي حديث ومعاصر

الأستاذ: حمزة بسو

المحاضرة الرابعة: حركة الإصلاح ودورها في تطور الأدب

تمهيد:

لقد تسرّبت خصائص الشعر خلال عصر الضعف والانحسار إلى الشعر الجزائري الحديث، باستثناء ما ذكرنا من شعر الأمير عبد القادر، غير أنّ زهرةً واحدةً لا تصنع الربيع! مثلما يقال، فعامّة الشعر الجزائري خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر، والربع الأول من القرن العشرين كان متّسماً بالجمود والركود وضعف المستوى الفنيّ، حيث انشغل أصحابه بالتشطير، والتخميس، والمعارضات المتردّية المستوى، وبنظم الأوراد الدينية، ومدح الأشراف* والأعيان والمشايخ، فضلا عن التهويمات الصوفية المنحطة، مع التوسل من الأذى والنقمة الاستعمارية بآل الرسول صلى الله عليه وسلم، فأُسقِط الشعر من عليائه، وتحول إلى نظم بارد لا يحرِّك في المتلقي ساكنا، ولا ينمّي فيه حساً فنيا، ولا يُشعره بجمال الشعر وحسن الإيقاع وسُموّ المعاني وروعة الإبداع، وهكذا أصبح الشعر أسيرا بين يدي الناظمين والمشايخ والفقهاء، فأفرغوه من محتواه، وخلعوا عنه إهابه ونضارتَه، ووجّهوه الوجهة التي يرضونها؛ شطرَ المنظومات التعليمية النحوية والبلاغية... وشطرَ علم الفرائض ومسائل الفقه والعقيدة، وربّما جاوزوا ذلك إلى اتّخاذ المقطوعات الشعرية وسيلةً للتباري بالألغاز، مثلما فعل محمد بن عبد الرحمن الديسي في لغز "الشمعة":

ورُميّة تذري الدمـــــوع كأنّـــــها تنوح على بكرٍ لها وخليـل
تذوب أسى، والناظرون بها اهتدوا فحنّ إلى وجه الخليل خليل
رشيقة يخجل الطـرف لحُسنـــــها أنيسة مشتاق لها وعليـــل
مُسهَّدة أنّــى يَلذُّ لهـا الكـــــرى ولم تشف من أجفانها لغليل

* من ذلك ديوان الشيخ عاشور بن عمر الموسوم (منار الأشراف على فضل عصاة الأشراف ومواليهم من الأطراف) الذي طُبع بالثعالبية، سنة 1914.

هكذا انحرف الشعر عن سبيله، ومضى في شعاب علومٍ وفنون يزيّنها بالوزن والقافية، ويغلّفها برتابةٍ إيقاعية قصارها تسهيل الحفظ، وقد علّق الشيخ مبارك الميلي على حال الأدب والشعر آنذاك قائلا: "وأخيرا بلغ من الانحطاط أن صار أدباؤنا يشتقون استعاراتهم، وكناياتهم من الفنون التي لا صلة لها بالأدب، مثل: الفقه والتوحيد، ويَزِنون قصائدهم ببعض المنظومات التي يقرؤونها في المواسم، ومجامع الأذكار، فيقول: هذه القصيدة من بحر (البردة)، أو من بحر (الهمزية)!!..."

1/ الحركة الإصلاحية ودورها في تطور الأدب:

ولم يزل الأدب/ الشعر الجزائري على تلك الحال إلى حين انبثاق النهضة الأدبية في الجزائر منتصف العشرينيات من القرن الماضي، وفي هذا الشأن يقول مبارك الميلي معقباً على كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر: "شعر شعراؤنا بحياة جديدة فنفضوا أيديهم من ذلك الأدب البالي المشوّه بلغة التأليف، ونفذوا إلى الأدب الغضِّ، واستمدّوا من شعورهم الرقيق الطاهر، وعلى أمثال هؤلاء الشباب نُعلِّقُ آمالنا في تجديد الأدب الجزائري ورفع مستواه" من هنا وجب علينا التمييز بين حداثة الأدب الجزائري الزمنية (أي بداية الأدب الجزائري الحديث) والتي تعود إلى بداية الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830، وبين نهضة الأدب الجزائري التي تعود إلى منتصف العشرينيات. أمّا حداثة الأدب الجزائري، هنا، فالمقصود بها: ارتباط الأدب الجزائري بفترة زمنية جدّت فيها مستجدّات حياتية، كان لها كبير الأثر في بلورة رؤية فنية وفكرية وَسَمت هذا الأدب في جانب من جوانبه –ولا ينبغي أن تنصرف أذهاننا، هنا، إلى الحداثة بمفهومها الابستيمولوجي والفلسفي، فذلك شأن آخر– أمّا المقصود بالنهضة: قيام النخبة الواعية بوثبة في سبيل تحقيق الرقي الفكري والحضاري والأدبي... وهذا ما حصل بالتحديد في الجزائر منتصف العشرينيات من القرن الماضي 1925، حيث حملت النخبة على عاتقها مسؤولية النهوض بمختلف مناحي الحياة، ولعلّ الذي حملهم على ذلك هو وعيُهم بضرورة التغيير.

ونشير هنا إلىّ أنّ لكلّ نهضة **وعي** يسبقها، و**الوعي** هو "تجاوز للإحباطات والحواجز في الواقع". من هنا أخذ رائد النهضة الجزائرية عبد الحميد بن باديس، وغيره من رجال الحركة الإصلاحية يعملون على إيقاظ الأمة، وتنمية الوعي، وبناء الشخصية الوطنية،

وتكوين الأفراد للنهوض بواجباتهم تجاه الوطن. ومعلوم أنّ معظم الشعراء الجزائريين كانوا منضوين تحت لواء الحركة الإصلاحية، فاتخذوا الشعر وسيلة لذلك.

إنّ نهضة الأدب الجزائري لم تنبثق من فراغ، إنما هناك عوامل عدّة، لعلّ أهمها:

- عودة طلبة العلم ورجال الحركة الإصلاحية من البلدان العربية بداية العشرينيات، فقد عاد من الحجاز الشيخان: العقبي (1890–1960) والإبراهيمي (1889– 1965)، ومن مصر: الشيخ العربي التبسي (1895–1975) ومن تونس: أحمد توفيق المدني (1899–1984) والخريجين من الزيتونة بتونس في هذه الفترة: محمد مبارك الميلي (1898–1945) ومحمد العيد آل خليفة (1904–1979) ومحمد خير الدين (1902– التسعينيات) وآخرون وقبل هؤلاء عودة ابن باديس (1889–1940) من تونس ثم من فريضة الحج سنة 1913، وقد كانت لهؤلاء فرصة الاطلاع على شتى صنوف المعرفة، والأدب ونقده، فما كان عليهم إلا أن هيؤوا الظروف للنهضة العلمية والأدبية والنقدية، من خلال تأسيس الجرائد، وإنشاء المدارس، وفتح النوادي، وغير ذلك. على أنّ تلك النهضة تقاس على ذلك الوقت وظروفه.

- تأسيس الجرائد* والمجلات، وتشجيع المبدعين على نشر أعمالهم على صفحاتها، وتشجيع المتلقين على نقد تلك الأعمال الإبداعية، منها جريدة (المنتقد 1925)، (الشهاب 1925)، (صدى الصحراء 1925)، (وادي ميزاب 1926)، (الإصلاح 1927)، (البرق 1927)، (البصائر 1936) وقد أكد ابن باديس أنّ الحركة الأدبية في الجزائر تأسست منتصف العشرينيات على صفحات الجرائد، يقول: "الحقيقة التي يعلمها كل أحد أنّ هذه الحركة الأدبية ظهرت واضحة من يوم برزت جريدة المنتقد (...) فمن يوم ذاك عرفت الجزائر من أبنائها كتابا وشعرا ما كانت تعرفهم من قبل"، وعرفت فنونا أدبية ما كانت تعرفها من قبل، كالمقالة بأنواعا، والقصة، والمسرحية..

* تجدر الإشارة إلى أنّ الصحافة الوطنية ذات اللسان العربي تأسست منذ بداية القرن العشرين، لكن اهتمامها بالأدب كان ضعيفا، منها: صحيفة (المغرب 1903)، (كوكب إفريقيا 1907)، (الجزائر 1908)، (الفاروق 1913)، (النجاح 1919)، (الإقدام 1920).

2/ جهود الحركة الإصلاحية في نهضة الأدب:

ليس خافيا على أحدٍ سعيُ المستعمِر الفرنسي الحثيث إلى طمس معالم هوية الفرد الجزائري، ومسخ فكره ومعتقده، وتشويه تاريخه، وتلويث لغته، مما جعل رجالَ الحركة الإصلاحية يتصدّون لهذه الحملة بالتشبّث بعناصر الهوية وبكلّ ما يمتّ إلى ماضي الأجداد بصلة، والتمسّك بتعاليم ديننا الحنيف، وبما نص عليه القرآن الكريم عروة المسلمين الوثقى، وقرّرته السنة. وبما أنّ معظم الشعراء الجزائريين آنذاك (أي خلال العشرينيات وما تلاها) كانوا منتسبين إلى الحركة الإصلاحية، متبنّين لأفكارها، ساد التوجه المحافظ في الشعر الجزائري، وقويت شوكته، وعمّت الدعوة إلى إحياء التراث الأدبي/الشعري والاعتناء باللغة العربية. ومن أمارات الاهتمام بالتراث الأدبي العربي أنّ أبا اليقظان اشترط في الشاعر أن يكون واسع الاطلاع "متضلّعاً في لغة العرب، وقواعدها، وآدابها، ومناحيها، وطبقات شعرائها، وأدبائها، مُلمّاً بأنساب العرب، وأيّامها، وتواريخها، ووقائعها، وسائر أحوالها، رُقيّاً وانحطاطا، حضارةً وبداوةً، لأنّ هذه الصفات تعطيه مَلكة تامّة في الشعر تمكّنه من الجولان في ميادين المواضيع المختلفة بفرس خياله، يأمن به من العثار المزري بالشاعر". بهذا التوجيه وقضايا أخرى تخصّ الشعر والشعراء صدّر أبو اليقظان ديوانه الشعري الصادر سنة 1931، وهي قضايا كانت رائجة لدى عامة الأدباء والمُدرّسين آنذاك*.

واعتناؤهم بالتراث الأدبي القديم، من بلاغة، وبيان، ولغة راقية، وأساليب فخمة، صور موحية، لا يعني انصهارهم في ذلك التراث بحيث ينسون واقعهم، بل جمعوا إلى عراقة التعبيرِ حداثَة المواضيع وارتباطها بالواقع الاجتماعي والسياسي والقضية الوطنية عموما، ولذلك نلاحظ اعتناؤهم بوظيفة الشعر ودوره ومكانته في الحياة والمجتمع، ومناقشتهم لمهمّة الشاعر ورسالته في التوعية والتوجيه وتنمية الحسّ الوطني وربط الشعر بالواقع المزري الذي كان يعيشه الجزائريون تحت وطأة الاستعمار الفرنسي وسياسته القائمة على القهر، والاضطهاد، والتجهيل، والتجويع، وهم بذلك لم يكونوا مقلّدين بصفة عامة، وإن بقوا في نظرتهم محافظين، وهم لم يكرّروا مقولات النقاد القدامى في ذلك، بل صدروا في مقولاتهم

* يقول ابن باديس في مجلة الشهاب، مارس 1930: "الشعر العربي هو أصل ثروتنا الأدبية، وأصل بلاغتنا، ومرجع شعرائنا في اللغة والبلاغة والأساليب العربية، فدرسه والاستفادة منه أمر ضروري لحفظ هذا اللسان المبين".

المتعلقة برسالة الشاعر ووظيفة الشعر عن واقعهم وظروفهم السياسية والاجتماعية، فسخّروا شعرهم لإصلاح المجتمع، وتحقيق نهضة البلاد ورقيّها.

وقدّ هيأ رجال الحركة الإصلاحية أسباب تحقّق النهضة الوطنية والنهضة الأدبية، ووضعوا لذلك مخططا محكما تجسّد من خلال جملة من التدابير، نذكر منها:

- **المشروع الباديسي (التربوي التعليمي)**: وتمثل في المسعى الحضاري الذي نهض به الشيخ عبد الحميد بن باديس، والمتمثل أساسا في تربية النشء، وتصحيح عقيدته، وبث الوعي فيه، وتنمية حسه الوطني، وتحفيظه القرآن، وتعليمه من العلوم الدينية واللغوية، والفنون الأدبية. وكل ذلك يشكلّ أسس بناء الفرد الذي عوّل عليه ابن باديس في تغيير الوضع، وانتزاع شوكة المستعمر، وتشييد جزائر الغد، وهو ما عبّر عنه بقوله:

يا نشء أنت رجاؤنا وبك الصباح قد اقترب

- **تأسيس الصحف**: لقد علم رجال الحركة الإصلاحية ما للصحافة من دور فعّال في إيقاظ الضمائر، وإحياء القلوب، وتنوير العقول، وبث الوعي، عن طريق المقالات الإصلاحية والدينية والأدبية، وعن طريق القصائد الهادفة. فقد غلب على تلك الجرائد الطابع الإصلاحي، ومع ذلك فقد شجّعوا المواهب والكتاب في مجال الأدب والشعر. من تلك الجرائد التي احتفت بالأدب والأدباء: (النجاح) لعبد الحفيظ الهاشمي، (المنتقد)،(الشهاب)،(البصائر) لعبد الحميد بن باديس، (الإصلاح) للطيب العقبي، (البرق) للسعيد الزاهري، (وادي ميزاب)،(النور)،(المغرب)،(الأمة) لأبي اليقظان... وقد "كان هؤلاء الأعلام –وهم علماء مصلحون وأدباء ملتزمون وصحافيون وطنيون– حريصين على تطوير الحركة الأدبية حرصهم على المساهمة في النهوض بالمشروع الوطني في جميع أبعاده، وقد تجلى بعض ذلك في توجيههم لهذه الجرائد الوجهة التي تمكنها من تخصيص أبواب ثابتة للنتاج الأدبي، فكان بالشهاب من ذلك (ركن الأدب، حديقة الأدب، من المنظوم والمنثور اليوم وقبل اليوم، وغير ذلك)، وكان بالبصائر هذه الأركان (إلى الأدب، النقد الأدبي، نقد المسرحيات المدرسية، وما إلى ذلك)، وكان ما يماثلها في بقية الصحف الأخرى". وقد عبّر الشعراء عن أهمية الصحافة في بعث النهضة، وتحريك دولاب الحياة والثقافة والفكر والأدب، من ذلك قول أبي اليقظان:

إنّ الصحافةَ للشعـوب حيـــاةُ والشعبُ من غير اللسانِ مـــواتُ
فهي اللسانُ المُفصِحُ الذَّلِقُ الذي بِبَيَـــانِه تُتَـــدارك الغايـــــاتُ
وهـــي الوسيلةُ للسعادة والهَنَـــا وإلى الفضائل والعُلَـــى مِرقـــــاةُ
فبها إلى الأمم العظيمة ترفع الـ رغبـــــات منه وتبلغ الأصـواتُ

- **<u>إنشاء المدارس</u>:** وقد ازداد عددها بعد "تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين"، فكانت بمثابة حواضن علمية، ومراكز إشعاع ثقافي، استقطبت النشء وكوّنته التكوين الصحيح الذي يتوافق مع الهوية العربية الإسلامية منها (مدرسة الإخاء) ببسكرة، (مدرسة دار الحديث) بتلمسان، (مدرسة الصاديقية) بالعاصمة، (معهد ابن باديس) بقسنطينة، (مدرسة التهذيب) بالبليدة، (مدرسة التربية والتعليم) بكل من مستغانم وبلعباس والبيض.
- **<u>تأسيس الجمعيات والنوادي</u>:** وأهمها "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" 1931، أما النوادي فأهمها "نادي الترقّي" 1927، وقد كان له دور فعال وأثر كبير في تنشيط الحركة الأدبية والثقافية والفكرية والإصلاحية.

كلّ أولئك عوامل ساهمت في تطوير الأدب وتحقيق النهضة الأدبية، والفضل فيها يعود إلى رجال الحركة الإصلاحية وجهودهم الحثيثة. وقد ذكر الشاعر محمد اللقاني بعض تلك العوامل التي حققت النهضة الأدبية في أبيات شعرية، يقول فيها:

وأنـــا بحمد الله في بدء نهضـــة فكم لنا فيها من مدارس أو نادٍ
وكم حرّك الكتاب في القوم ساكناً وكم بذرُوا ما دونَه شقّ أكبـــاد
ولله في تلك الصحافة حِكمـــــة يُنَال بها ما لا يُنـــال بأجنـــاد

وقد نادى الشعراء بالرسالة الإصلاحية وضرورة بثّها عبر كلّ الوسائل، ومنها الشعر، وفي هذا الشأن يقول محمد السعيد الزاهري:

وأَقْفُـــــوا سبيل المصلحين فإنّـــه لَأوضحُ مِنهـــاجٍ وأحسنُ منـــوالِ
وأنصحُ فتيـــانَ الجـــزائرِ كلَّهـــم ولا أذكرُ الأشيـــاخَ إلاّ بإجـــلالِ
ألا في صَلاحِ الشعب أصرِفُ مُهجتي وفي الشـيب والفتيان والصَحبِ والآلِ

ويخاطب محمد العيد آل خليفة قومَه والشعراءَ واصفاً شعره:

وقُلتُ لهم من يعشُ عن نفعِ قومِه أقيّض له جيشاً من الكلمـاتِ
كذلك سِفر الكَـــون وعظٌ وحكمةٌ وزجرٌ وتوبيخٌ، وقـــرعُ بُغاةِ
لــو اتّعظ القُرّاءُ مِنـــــه بخَتمةٍ لكانت عليهم أيمنَ الختمـاتِ

وفي السياق ذاته، يدعو رمضان حمود قومه إلى النهوض ونبذ الخمول:

نهوضاً نهوضاً بَني جِلدتي إلامَ ونحـــن بِطَيّ الخبـر؟
إلام وفي الأسر أرواحنـــا ونحيـا هَواناً حياة البقـــر؟
أنُمسي ونصبح في حسـرةٍ وننسب ذاك الشقـــا للقدر؟
أنمسي ونصبح في ذلّـــة ونلزَم، خوفاً، سكونَ الحجر

هكذا سعى الشعراء إلى تحقيق النهضة ببثّ الوعي، وتنمية الحسّ الوطني، وبالنصح والإرشاد والتوجيه، والأخذ بيد الشباب إلى ما فيه صلاحهم وصلاح البلاد والعباد.

3/ موضوعات الشعر ومضامينه من منظور الحركة الإصلاحية:

وإذا ما انتقلنا إلى **الأغراض والموضوعات** المعالجة في الشعر الجزائري الحديث، فإنّنا نلفي أغراضاً عرفت ترحيباً وانتشارا، وأخرى عرفت تزهيدا وانحسارا؛ فمِن هذه التي عرفت تزهيدا وانحسارا الأغراض الآتية: الغزل، الفخر الذاتي، الرثاء، المديح، والهجاء؛ والسرّ وراء ذلك أنّها أغراض لا تخدم المجتمع ولا القضية الوطنية؛ فالظرف الذي كانت تعيشه الجزائر لا يسمح بالخوض في تلك الأغراض الشخصية/الذاتية، فقضية الجماعة أولى، ولذلك لم يحفل كتاب (شعراء الجزائر في العصر الحاضر) بجزأيه 1926–1927 بقصائد الرثاء والمديح والهجاء، ويعلّل صاحبه ذلك قائلا: "أخرجتُ هاته المواضيع لِما بينها وبين الحقيقة اليومَ من التباين، لِما في المديح من التنازل عن الكرامة، وفي الهجاء من البذاءة، وفي الرثاء من التعداد الذي قلّما يصدق فيه قائله، والجميع في الأكثر لا يفيدنا معنى اجتماعيا، ولا غيره، وعلى الأخص في بيئتنا" كما زهّد رجال الحركة الإصلاحية الشعراءَ في الخوض في

الأغراض الذاتية، خاصة الغزل، الذي يمسّ بسمعة الشاعر الإصلاحي ووقاره ورسالته النبيلة، وفي هذا الشأن يقول الطيب العقبي:

دع ذكر سلمى وسعاد وانهض لإصلاح البلاد

ويقول ابن باديس:

ودع غزلاً في الغانيات فطالما سَلاَ عن وصالِ الغانيات نبيل

ويقول محمد اللقاني:

ألا فدع التغزل في غـــوان فتِلكَ طريقة المستهترينَ
ومن صوت البلاد لنـا نداءٌ يكاد المرء يسمعه أنينـــا
فهل لك يا (جزائر) مِن أَبِيٍّ يعزّ عليهِ قدرُكِ أن يهونا

ولعلّ كبْتَ الشعراء في هذا الباب حمَلهم على التغزّل بالوطن والحريّة مثلما فعل رمضان حمود في قصيدته (الحريّة)، ومفدي زكريا في قصيدته (لك الحياة)، ومحمد العيد آل خليفة في قصيدته (أين لَيْلاي؟)...

وفي الانصراف عن المدح يقول السعيد الزاهري:

ولَم أمتدِح يوماً أخا جدة لِكَي يجـود فنائي من غَـوَادِيه صيّبُ
ورُبَّ قصيدٍ قلتُ ممتدحـاً به أخا الحَـزم لا يألو إلى المجد يدأبُ

وقد استهجن رمضان حمود جملة الأغراض الذاتية، فقال: "... مَن تعلّقت نفسه بالمدح، فليمدح الأخلاق الفاضلة وينشرها بين قومه ويتشبّث بالفضيلة. ومَن يمِل إلى الهجاء، فليهجُ العوائد الفاسدة ويذمّ الرذيلة بأنواعها. ومَن يحبّ التغزّل، فليتغزّل في وطنه الجميل الذي يعيش فيه ويأكل خيراته" ولذلك عَدَّ الشعرَ الذي لا يحرّك نفوسَ العامّة، ولا يذكّرها بواجبها المقدس ووطنها المفدّى، خيانةً كبرى وخنجراً مسمما في قلب المجتمع الشريف

وعموما، فإنّ انصراف الشعراء عن تلكم الأغراض لم يكن كليًّا، وإنّما عمدوا إليها متى دعت الضرورة إلى ذلك، وفيما يعني الجماعة والوطن والقومية، لا ما يعني الفرد وقضاياه

الشخصية، ولذا يذهب أبو اليقظان إلى أنّ الشاعر الحقّ "إنْ مدحَ فإنما مدح للتنشيط وتنمية عاطفة الصداقة والوداد، وإن أنّبَ فإنّما هو لكبح جِماح الشاردين من الأوغاد، وإن تحمّس فلِرَفع ما تنَكَّسَ من الرؤوس، وإن رثى فبُكاءً على الفضيلة، وإن استعطَفَ فصيانةً للكرامة والأقدار، وإن وَصفَ فللاِعتبار والاستبصار". هكذا كانت الأغراضُ مشروطة بشروط النفع الجماعيّ والتحريض الإصلاحيّ، وخدمة للفضيلة والمثل العليا التي تنهض بالمجتمع وتُوقِظُه من غفلته وتُنبّهه من غفوته.

ولعلّ الذي كبَح جماح ذاتية الشاعر المحافظ الإصلاحيّ هو ضميره الذي أبى عليه أن يخوضَ في قضاياه الشخصية ويتّخذ قضايا الشعب والوطن وراءَه ظِهرياً! وأبى أن يَهِيم في كل واد! وأن يُنيخَ مطاياه في كلّ مَربع شِعبٍ من شِعاب الشعر، فهو، إذن، صوت الضمير يوجّههُ شَطرَ النهوض والتغيير.

يحدّثنا رمضان حمود عن شعره وشعوره وصوت ضميره قائلا:

ويُرغمني وما في الأمر رَيبٌ على نفعِ البلادِ بكلِّ غالـــي
فسَمعاً يا ضميري كن قريـراً رضِيتُ بِحُكمكَ العذبِ الزُلالِ
فإنّي لا أملُّ وسوفَ أسعـــى إلى رفع الستار عن المحـالِ
سقوط المرء خير من جمـود كَموتِ الحُرِّ خيرٌ من نكـالِ
إليكم يا رجال العصرِ شِعري إليكـــم، لقِّنـــوهُ لِكـلِّ تـال

وبهذا، عُدّ الشعراء طائفةً مرهفة الحسّ أبى عليها شُعورها أن تخضع لشيء غير واجب الضمير وإلهامات الطبيعة، حيث أوقفوا أنفسهم على بني جلدتهم، أو بني الإنسان أجمعين، يجاهدون بأفكارهم في سبيلهم، ليعلّموا الجاهل، ويهدوا الضالّ. هكذا لقي الشعر الاجتماعي والإصلاحي والسياسي ترحيباً واحتفاء وانتشارا، فتمّ من خلاله وصف الواقع المزري، ونقد مظاهر التخلّف الاجتماعي، وبيان سبل النجاة والخلاص.

يصف محمد العيد آل خليفة في قصيدته العصماء (أسطر الكون) مظاهر البؤس والشقاء قائلا:

وأَقـرأُ مِن آيِ الشقــاوة أسطُـراً على صفحات الكون مرتسماتِ
فَسَطرٌ: عَيَابِيلُ أمضّهم الطـوى عُراةٌ على لَفحِ الأثير مكتئبـاتِ
وَسَطرٌ: أيامى يصطرخن توجّعاً مِن البؤس لا يفتأن مُكتئبــات
وَسَطرٌ: يتامى مرهقيـــن تكُبّهم على جُرف البلوى يدُ العثــراتِ
وَسَطرٌ: شيـوخٌ كالأهلّة شِيـبٌ وهل شيبهم إلاّ نذيــرُ وفـــاةِ
وَسَطرٌ: مشــائيم غِرارٌ أذِلّـــةٌ يُســـامُون بالأرزاءِ والنكبــاتِ
وفَوقَهم سَطرٌ مِن الخلقِ كُلّـــهِ جُناة لـعمر الحقّ فوق جُنـــاةِ

ويندب اللقاني بن السايح حظَّ الجزائر العاثر، واصفاً الوضعَ المتردّي الذي يعيشه الشعب الجزائر، ناقدا أسباب البؤس والشقاء، مُشخِّصاً الداءَ واصفاً الدواءَ بعد ذلك:

بَني الجزائر هذا الموتُ يكفينـــا لقد أُغِلَّتْ بِحبلِ الجهل أيدينـــا
بني الجزائر هذا الفقــر أفقدنـــا كُلَّ اللذائذ حيناً.. يقتفي حِينـــا
بني الجزائر هذا اللهوُ أوقعنـــا في سوء مَهلكةٍ عَمَّت نوادِينـــا
بني الجزائر قَومِي ما لَكم غُرَبَـا عن نَيل مكومةٍ تُرضي المُحِبِّـينا
بني الجزائر قَومِي استيقِظوا فَلَكَم أذاقنا اللهوُ والإهمــالُ تهوينـــا
بني الجزائر ما هذا التقاطعُ مِن دُون البَرايا، عيوبٌ جُمِعت فـينا
فقــرٌ وجهـلٌ وآلامٌ ومسغبـــةٌ يا رَبُّ رُحماكَ هذا القَدْرُ يكفِينا
فالجهلُ قــاتِلُنا، والفقر مُهلِكُنـــا والبأسُ خَـاذِلنا، واليـأسُ مُردِينـا

ويتخلّص الشاعر إلى وصف الدواء بعد أن شخّصَ الداء، فيقول:

مُدُّوا أيديــكم فَهَـــا كَفّـــي لِنتَّحِد إنَّ التفرُّقَ يــا للعار يُؤذِينـــا
هيَّـا نــؤُمُ زُلالَ العِلمِ نشربُـــــه فالجهــلُ يقتُلنا، والعِلمُ يُحيِينَا
الناسُ بالعِلمِ شقُّوا الأرضَ واخترقُوا وشَيَّدوا وبَنـــوا عِزّاً وتَمكِينـــا
الناسُ في الجوِّ طارُوا، حلَّقوا وعَلوا ونحن نحسبُهم جهلاً شياطِينـا
الناسُ بِالعلمِ نـــالوا كلَّ مكرمـــة ونحن بالجهل لا يُرجى تلاقِينا

ومما تجدر الإشارة إليه، أنّ هيمنة التيار الإصلاحي والنقد الاجتماعي على الشعر الجزائري الحديث، وإن كان متمخّضاً عن ضرورة ظرفيّة أملاها الواقع والظرف التاريخي، حرمت الشعرَ من فُسحة الخيال ومَسحة الجمال، فـ "تحكّم النظرة الأخلاقية في الفنّ جنت على الشعر الجزائري ولا سيما في عهد الإصلاح، فحرمته من إبداعات الشعر الذاتي العاطفي، وقصّت أجنحة الشعراء فلم يستطيعوا التحليقَ في أجواء المشاعر النفسية الجامحة".

4/ الخصائص الفنية للشعر المحافظ الإصلاحي:

أمّا إذا تأملنا **الخصائص الفنية** لشعر الاتجاه المحافظ، فإنّنا سنكتشف طابعاً فنيا عامّا مشتركا بين شعراء هذا الاتجاه، ويتفاوتون من حيث المستوى الفني، والملكة الشعرية، والتجربة الشعورية، بل إنّ الشاعر الواحد لتتفاوت قصائده جودة ورداءة، تحكماً وتفلّتا. ولعلّ ما سجّله محمد ناصر على شعر أبي اليقظان يكاد ينطبق على شعر المحافظين عموما، ويتمثّل ذلك في:

– وحدة البحر والقافية والتفعيلة في القصيدة من أولها إلى آخرها مهما طال نفس القصيدة، وهو إن خرج عن هذا الإطار فإلى تنويع في القوافي بين مقطع وآخر، بل حتى المراوحة بين القوافي نادرة.

– شيوع الاقتباس والتضمين.

– نزعة المساجلة والتشطير، وهي ظاهرة عُرف بها الشعراء قديما.

– النزعة الخطابية التقريرية ذات الصيغة المباشرة في أغلب القصائد. وهو ما تسبب في ضعف الخيال والصور الشعرية، خاصة تلك القصائد المُلقاة على الجماهير في مناسبات خاصة.

– جزالة اللفظ ومتانة اللغة.

يضاف إلى ذلك اعتناؤهم بالموسيقى الخارجية والداخلية على حدّ سواء، مع رتابة في الإيقاع، وتخيّر للبحور والقوافي والألفاظ والرويّ بما يتناسب مع الحالة الشعورية والغرض، حزنا وأسى، أو طربا وابتهاجا، على طريقة القدماء. أمّا عاطفة هؤلاء الشعراء فنلمس صدقها

في الكلمات، وخفقانها في العبارات، وتدفّقها عبر الأوزان، وانسيابها عبر الإيقاع، ذلك لأن تلك العاطفة منبثقة عن تجارب شعرية معيشة، عاشها الشاعر في ظلّ حوادثَ مُلِمّة وخطوب مُدلهمّة.